عوْدهم ، وتوافقنا معهُم على الارتقاء اليهم لـذلكَ البـاذخ الشاهق ، والشّـامخ السّامق ، والمرتدُّون قد وثقوا به ، وسروْوا من حول الله وقـوته اليـه ، وأودعوه مـع نُقُومهم حملة أهْليهم وأمْوالهم ، وبنّوا منـه ـ بما بَـذا من احْوالهم ـ أنّهم يَحذُون في المُحَاولة ويصدقون في المكافحة ، ولا يعون جهداً في المكاثـرة والمكـابرة ، كـاشفين قنـاعُ المـاداة ، مُبْدين صفحـة المعـاداة ، فـأجمع الموحدون ـ أعزهم الله ـ أمره ، وأخْلَصُوا لله سرّهم وجهرهم لا يجعلون ملجأ سنَدٍ ، الى كثرة عدد وعدد ، بَلْ فوّضُـوا أمرهم الى الله تعـالى الذي وعـدهم الفتـح وعـوّدهم النُصـر ، فـانهدنـاهم اليهم يـوم الأثنين الخـامس من شـوال يسلكـون اليهم في مسـالـك حـرجـة ، لا يسلكهـا السـالـك إلى[1] بيْن غيْضـة وحـرْجة ، قـد التفّتْ شعرائهـا ، واحتفّت بشْحرائهـا ، ذات حَـدَبٍ وآكـام ، لاثبَاتَ فيها للحوافِر ولا لـلأقدام ، فـاتصل مشْيهم على مـا أخذوا من أهبتهم وأعـدُّوه من عدُتهم وكتّبُـوه من كتائبهم ، ورتّبـوه من رتبهم ، في هـذا السّفح [174] الموصوف ، والمرتدون قد أخذُوا علَيهم أعاليَه ، وارتكـُـوا دونهم قُنّته سادين لانقابه ، مُعَوّلين لمَسَالكه مُخَلّفين لـلانصبا[2] من ذُرَاه ، والانقصـاص من عُـلاه ، واستمر بـالموحـدين اعلاهم الله اليُسْـر ونهضت بهم العَزيمـة ، واستقـل بهم التّصْميم ، والتوكـل يقُـودهم ، والثُقَـةُ بـالله تحـدوهم ، إلى أن شـارفوا حدَّ التسنُّم ، وأفْضُـوا الى بـاب التـوقـل ، وهـناكَ تَقفُ الأقـدام عن الإقدام ، وقد اضطروا الى أوعار لا تمكن من تَرقّيها ، ومقابلة أعداء لا يدري كيف تـرقّيهـا ، ومشـاهـدة أحْـوال على الجملة لا عَهْـد بتلقُيهـا ، والأعْـداء يتربصون بهم وقوعهم في مثل هذه الحال ، وحصولهم في مثل هـذا المقام ، ويرون أنّهم بما حَازُوه من عُلُوّ مكانِهم ، واستحقُـوه من ذُرْوة وعرهم ، وأمْلوه من التصـوب على مَنْ مدَّ اليهم يـدَ مُحاولـة ، أورام منهم يَسير مُـساولة ، أنّهم رابحو الصفقة ، مُرْتفقوا الحطّة ، ولله تَعـالـى من العنايـة بأمْره مـا يسهـل

(1) هكذا في الأصل والصواب الا.
(2) هنا كلمة لم نهتد لتحقيقها ويشبه أن تكون «للانصباب».

الصّعب، ويذلّل الوعْر ، ويلين الشـديد ، ويقـرّبُ البعيد ، ولمـا انتهى الأمر الى هذا المَوْقِف ، ووصل الى هذا الموصل ، ورأوا صدقَ العزيمـة ، ومضا الصـريمة ، في الصُّعُـود إليهم ، والتّرقي نحـوهم ، غير مترف مكرهم ، ولا متخوّف وعدهم ، جهد الأعداء في اللقـاء جهدهم ، وبذلوا من المكـافحـة جميعَ ما عِنْدَهم ، ولم يُبقوا نكاية إلا أبدوها ، وَلا غايةً إلا استوفوها ، من كلّ [175] فَنّ وعلى كـلّ وجـه ، فـأفـرغ الله على أوليـائـه الصبـر ، ومكّن لهم العزم ، وثبّت أقدامهم ، وربط على قلوبهم ، وحرّف الفشل والرُّعب عنهم ، وأيدهم بروح منه أوطَاهُم بـه ، مَسَالِكَ بَعِيدٌ في العـادةِ أن تَثْبُتَ بِهَا قَـدَم، أو تسعى فيهـا رِجْل. وكـان من أغرب الآيـات أن صارت الحَيْل فيهـا أنفـذ من الرجُل بل من الطّير ، فأصحَـوا قلائد في أجْيادهـا ، وأطْواقـاً في أجْسَادِهـا ، وأهبَّ الله لهم ريح النّصر ، ومنحهم أكتاف العدو ، وأخذهم الله مـالك أخذاً تنوع فيهم العذاب ، وتيقّن به فيهم الانتقام ، فمِن بين مضرج بدمـه ، ومرتـدٍ في مـزلّة قـدَمِـه ، وفارٍّ الى حيث لا مُعْتَصم ولا ملجـأ ، الى حيثُ لا وزَر ، واستـولى الموحـدون ـ أعزّهم الله ـ على الجَبل كلّه ، واستحقّوه على أهله ، وضربتْ بـه خيامُهم ، ورُفِعت في أعلاه أعلامُهم ، واقتفوا أثـر الفارين في كـلّ شعب ، يقتلونَهم قتـلاً ، ويشلونهم شلّاً ، لا نـاصر لهم ولا مـانع منهم ، قـد اسلمتْهم ذنـوبُهم ، وأخلفتهم ظنـونهم ، وافضـوا الى جميـع مـا أعـدوه فيـه معهُم ، وكان في العزّة عليهم مثل أنفسهم من حرمهم وفنون أموالهم ، إلى ما كان آوَى اليهم من حُرَم غيرهم وأمْوالهم ، ونفله الله أياهم مغنماً كريماً جليلاً وعَطاءً جسيماً جزيلاً ، رحمة منْه وفضلاً ، وإحسـانـاً منه وطـولاً . وخلا هـذا الجبـل المذكـور من أهله ، وأضْحَى يبـابـاً بَلقعـاً كـأن لم يَغْنَ بـالأمس عبـرةً للمعتبرين [176] وذكرى للذّاكرين ، وخاطبـونا ـ أعزهُم الله ـ بهذه البُشْرى لحين وقوعها ، مبادرين الى ذلك لقُرب المسافة التي كانت بيْنَنا وبَيْنَهم ، فإن مشيَهم الى هذا الغزو وحركتَهم له وتصرفهم فيه ، كان منّا بمرأى ومطلع ، لم يكتم عن عياننا ، كيف كان ارتقاؤهم اليهم ، وتسنُّمهم نحـوهم ، وعرّفوا أنهم في اليوم الثاني من هـذا الفتح الكـريم يُوالـون تفتيش زواياهم ؛ والتّنقيب عن

خباياهم ، ففعلوا ذلك وحصّلوا منه ما وجدوه ، وأضافوه الى ما غنموه ، ولم يسمع بعد هذا التّعقيب في التنقيب دعاء داع هنالك ولا إجابة مجيب ، وهؤلاء القوم ومن انضاف إليهم ممن وقعتْ به هذه الواقعَة ودارتْ عليه الدّائرة ، هم مقدّمو غمارة ومستتبعوها ، ومُغووها ومضلوها ، وهم كانوا شوكتّها الناكية ، وثورتها الثائرة[1] ، وكان قطب رحاهم ، ومدير حربهم ، وقائدهم في يومهم ، والذي انتهى اليه عنوانُ أمرهم ، ذلك الغويّ الشقيّ سُبَع بن منخفاد ، وهذا الجبل هو الذي كان أبلقهم الفرد[2] ، الممتنع على من رامه ، المستعصب قديماً على من كاده ، فقد استفتح مَمْنُوعه ، وحلّتْ من الظّالمين ربُوعه ، وهُدّت ـ بفضْلِ الله عزّ وجلّ ، وببركة هذا الأمير العزيز ـ أصُوله وفروعُ ، كان قلهم وفلهم قد انحجزوا الى أحجار لا تستقل بمنعتهم ، ولا تفي بحمايتهم ، وكان هذا الشقيّ [177] المذكور يوم الفتح قد فرّ برأسه ، ناجياً من ذلك المأزق بحشاشة نفسه ، وقد استبيح أهله وماله ، فسلك سبيل الانجحار ، وأمعن في زوايا الاختفاء والاستتار ، ولما أتى أمر الله تعالى على هذا الجبل وأهله بما ذكرناه ، تنقّلنا بالموحدين ـ أعزهم الله ـ من المنزل الذي منه توجُههم الى الفتح ، ونزلنا بهم المنزل الذي خاطبناكم منه ، واتّصل تتبع هذا الفل ، وأخذ المراصِدِ عليهم ، وتمادى ذلك وكل الجهات المجاورة لهذا الجَبل المذكور ممن كانتْ أعيُنهم ناظرة . وآذانهم الى ما يقع مصيخة ، قد رغبوا في الإقالة وأعلنوا في التوبة . وسعوا في إحراز دمائهم وأموالهم ، وتسويغ برد العافية لهم ، وكل من قرع هذا الباب فهو له مفتوح ، ومن استمنحه ، فهو على عوايده مبذول مَمْنُوح . وفي خلال ذلك وافى من

(1) نكى : قتل وجرح ينكي نكاية وثورة ثائرة ثارت السهام في الرمية . اهتزت فيها، ولعل الصواب. الثائرة، أي الواثبة

(2) حصن السموال بن عادياً، وهو مشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب وفيه يقول السموال:

هو الأبْلقُ الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رامهُ ويطول

ياقوت، معجم البلدان ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية، أول ص 65

صُنْعِ الله الجميل الذي لَمْ يزل يصاحبُ هذا الأمْرَ العزيز في كل مَقام ، ويتكمّل له في كلّ مبدأ من مبادي ظهوره بأفْضل خاتمة وأشْرف تمام ، ما جعله الله لهذا الفتح العَظيم كمالاً ، واستوفى به مقاصده العلية استيفاء ، وذلك ان الشقيُّ الغوي لمّا لم يجدْ نفقاً يُؤويه ، ولا مدخلاً يجنح اليه ، أوى الى بعض تلك الجبال ، واطمأن الى بطانة له من غمارة وثق بإيوائهم له ، واشتمالهم عليه ، مولياً عن أمر الله تعالى ، مكايداً له ، مصمماً على الأعراض عنه ومتربّصاً [178] به من الدوائر ما أوقعه الله به ، فلعناية الله بهذا الأمر العزيز وفق الله تلك البطانة ، وأراهم رشدهم بالتقرُّب الى هذا الأمر العزيز ، والتفادي منه ، والتعدي عن شومه ، والانتزاح عن شرّه ، وما تحققوا من سوء عاقبته ، فوثبُوا عليْه واستوْثقُوا منْهُ ووصلوا به مقتاداً برمته ، مشهراً بفضيحته ، مقلداً بعاره ، آيةً لمن أبصره ، وعبرةً لمن نظره ، ومكن الله الموحدين منه فغزى غزْواً[1] شفى صدور المؤمنين ، وأقرَّ عُيون الموحدين ، وبثّ في أعْضَاء المارقين ، وأطفأ الله به نار الفتنة ، وأخمد به ضَرَمَها ، فإنه كان الحاطبّ لها والمسعر لوقودها ، وكمل به هذا الفتح العظيم ، والصنع الجسيم ، ومقدار هذا الفتح المصنف والنصر المفنّ إذا وفر عليه حقّه وحقّق له قسطه ، وزن بميزانه ما لاتقوم به أقوال القائلين ، ولا يبلغ حقيقته إطنابُ المطنبين ، لأنه جاء من نفحات رحمة الله تعالى التي يُصيب بها من يشاء من عباده ، والحمدُ لله الذي جَعَل أولياءه ممنُوحين من نفحاته ، وعظيم عنايانه ، بما يعرفهم اختصاصهم بفَضْله ، وتميُّزهم بتأييده ونصْره ، ولَهُ الحمدُ كثيراً . وعرفناكم بذلك مشروحاً لتحمدوا لله تعالى عليه ، وتأخذوا بحظكم منه ، وتعطوه حقّه من الإشاعة ، وتوفوه واجبّه من النشر والإذاعة ، فقد انحسمت به أدواء كانت في حد الإعضال ، [179] وأخمدت نيرانٌ كانت من الفتن في

(1) تذكر بعض المصادر أن رأس سُبع بن منخفاد حمل إلى مراكش بينما تنقل أخرى أنه حمل إلى فاس، ويظهرُ أن الرواية الثانية نصّت على فاس باعتبارها كانت الطريق لمراكش
ابن أبي زرع : القرطاس جزء ثان ص 185

Mouliéras, le maroc inconnu 352

اصطدام واشتعال ، وستكون آياتُها منبهةً ، وعبرها مذكرة ، يصلح بها الفاسد ، ويستقيم بها المائل ، ونَسألُ الله تعالى أن يورع شكر آلائه ، وينهض بما حمل من أثقال أمره العزيز وأعبائه ، بفضله وكرمه . والذي نفَل الله الموحدين أعزَّهم الله من ضروب المغانم والأنفال ، وذلك من البقر اثنا عشر ألفاً ، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائة ، ومن السبي[1] ثلاثة آلاف وست مائة وسبعة وأربعون ، ومن الدوابّ ستمائة وسبعة[2]عشر وهي الآن متصلة متتابعة ، فله الحمد على ما أولى أولياءه من الخَيْر الواسع ، والنَّصر الكريم المتتابع ، لا رَبَّ غيره ، والسلام العميمُ الكريمُ عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب في الرابع عشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة

وهذه الرسالة كافيةٌ بتاريخ فتنة غمارة والفتح فيها فاقرأها . وكتب السيد الأعلى أبو حفص عن نفسه ، صحبة هذا الكتاب الكريم ، معرفاً بالفتح أيضاً ، الى الشيخ الحافظ الأجل المرحوم أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما [180] هذه نسختُه

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم من عمر بن أمير المؤمنين ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم ، أدام الله كرامته بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد رسوله وعلى آله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، والدعا لسيّدنا أمير المؤمنين ولوليّ عهده الأمير الأجل الملك الأسعد أبي يعقوب بدوام التمكين ، والفتح المبين ، فالكتابُ إليكم ، كتب الله لكم نعماً ثرّة وأعمالاً برّة ، - من مَنْزِل الموحدين أعزّهم الله بمحلّ الكواكب ، وفتوحُ الله لأوليائه متصلةُ النظام ، مؤيَّدة الأعلام ، آخذةُ بمجامع الكمال والتمام ، فإنه تبارك وتعالى يسر للموحدين هذه الجبال الصعْبة ،

(1) يعني من الاسرى
(2) يلاحظ ان ابن صاحب الصلاة هنا يبدأ قراءة الاعداد من الأرقام الكبرى، بينما عهدت قراءتها من الأرقام الصغرى حتى تنسجم مع العادة العربية من البدء بالقراءة من اليمين لليسار: ثلاثمائة وسبعة وعشرون ألفاً، وسبعة وأربعون وستمائة وثلاثة آلاف ...

والمعاقل الأشِبّة ، التي كان أهلُها قَدْ بطروا وأشروا النِّعمة ، وشقُّوا عصا الجماعة ، وأجابونا عن الفتنة ، فوصل الموحدون اليهم واستأنوا بهم آخر الأجل في التَّبصرة والتذكرة والاستتابة ، فكان منهم من راجَعَ الحقَّ وتلافاه الله واحد بحجزته عن النَّار ، فاولئك نجحُوا وأحرزوا أموالهم وعيَالهم ، ومن يهد الله فهو المهتدي ، واستمر سايرهم على اللَّجاج والعناد ، وظنوا أن معاقلهم مانعتهم مِنْ أمْرِ الله ، ومن يُضْلِلِ الله فلن تجد له [181] سبيلاً ، وما زالَ الموحدون يَستنزلونهم من هِضابهم ، ويستخرجُونهم من شعابهم ، حتّى أتوا عليهم قتلاً وسبْياً ، وكان مِنْ آخر ذلك هَذا الجَبَلُ العظيمُ الشان ، المنيف من هذه الأرض على كلّ مكان ، وكان فيه رأسُ غوايتِهم ، وعميدُ ضلالتهم سَبُع بن منخفاد الشقّي مدارُ قوْمه ، ألحق الله به أمثالَه ، وكان قد ضم اليه أمّةً عظيمةً من الأشقياء زاعمين أنَّهم يعْتَصمُون من الموحُدين فيه ، ولا عاصِمَ مِنْ أمْرِ الله إلّا من رحم ، فاسْتعان الموحدُون بالله وصمَّدوا اليهم وقاتَلوُهم على مَصْعدة قتالاً شديداً أجهض الأشقياء عنه وردُاهم منه ، وفرَّ الشقي المذكور ، وأفْلت مِنْ ذلك الهوْل ، وآوى الى بَعْض قبائل غمَارة ، فشَرح الله صدُورَهُم ببركةِ هَذا الأمر العزيز وسعْده ، فأخذوا الشقي وجَاءُوا بهِ أسيراً موثوقاً ، فعزِي فيه ورُفع جدعُه ، وعفى أثَرُه وكمل أمر الله في هذه الجهة ، وانجلت عنها غَيابَةُ الكُفْر ، وفاض عليها نُورُ العَدْل وانسكب فيها غمام الإحسان ، والحمدُ لله ربِّ العالمين ، وهي نِعْمةٌ عظمى وفتحٌ أعظَم يجب أن يُعرف قدْرُه ، ويوفي شُكْره ، فخُذوا حظَّكُم من المسرْة بما مَنَح الله إخوانكم الموحُدين وخوَّلهم من الخيرات ، وأفاء عليهم من المغانِم التي جلَّ قدرُها ، وعظُم خَطْرها ، حسب ما جرتْ به عوائد الله لهذا الأمْر وأهْله . جعلنا الله ممَّن شَكَر [182] نُعْماه ، ونصر حزبه بمنّه وكرَمِه ، ووصلَ - أعزكم الله - كتابكم البر ووقفْنا عليه ، وشكرنا احتفالَكُم ، واستعنَّا الله لكم ، واستوهبناه لكم الكرامة والإمداد بالتوفيق ، فكذلك توالون المُطالعة ، وتستمرون على أعمال الخَيْر والبر ، والله وليُّ عونكم ، والسلامُ الجزيل عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه

كتب في الرابع عَشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة

(منازلة أبي عبد الله بن أبي إبراهيم لحصن لبسة)

وفي أثناء هذه الغزوة المنصورة غزا الشيخ[1] الحافظ الأجل المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم حصن لَبْسة المتوسط بين مدينة أغرناطة ووادي آش ، وكان هذا الحصن قد أسكن فيه محمد بن مردنيش حملةً ذميمة منكية من أحلافه النصارى أهلكهم الله ، أمرهم أن يعاثوا مِنه محص مدينة أغرناطة المذكورة ، يوالوا الإذاية منه عليها ، فكانت شجى في حلقها أذاقتها من الإذاية مر ذوقها ، فعزم الشيخ المرحوم في نفسه عزيمةً أعانه الله تعالى عليها وطرق الله بعسكر أغرناطة ورجالها ، ونازله وفتحه غلبةً على النصارى الطاغين في يومه . [183] وعزا جميع مَن كمن في داخله ، ورفع الله بجهاده واجتهاده عظيم عُدوانه ، وعَدَمَه وخرّبه في ساعة من زمانه ، وانصرف الى أغرناطة ظاهراً مجاهداً ، ولله تعالى ناصراً ، فأعلم الحضرة العلية بفعله وغزوه وجدّه ، فجاوبه الأمير الأجل الرضي الأعدل أبو يعقوب رضي الله بهذه الرسالة الكريمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وسوله وعلى آله من الأمير يوسفَ بن أمير المؤمنين أيّدهم الله بنَصْره ، وأمدهم بمعونته ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم والطلبة الموحدين بأغرناطة ، أكرمهم الله بتقواه ، ووفّقهم لما يرضاه ، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه ، أمّا بعد : فإنا نحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيّه ورسوله ، ونسترْضيه عن الإمام المعصوم ، المهدي المَعلوم ، القائم بأمْر الله تعالى والداعي الى سبيله ، ونصِلُ الدُعاء لخليفة سيّدِنا أمير المُؤمنين المتهض بتّميم أمره تعالى وتكميله ، وكتبناه إليكم - أتمّ الله نعمته عليكم - من حضرة مراكش ، حرَسها الله ، والذي نُوصيكم به تقوَى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاسْتعانة به

(1) تحت كلمة الشيخ الحافظ يوجد إلحاق بأحرف صغيرة معناه يشبه أن تكون : دامت عصمته» أو دعاء من هذا القبيل

والتوكل عليه وقد وصلت الينا مكاتباتُكم ووقفْنا منها على [184] ما ذكرتُم من استبشاركُم بما منّ الله تعالى لأولياء أمره من الفتح والنصر ، وبمّا منّاه الله للموحدين هُناك من غزو المحسّمين[1] ، واستنقاذ ما كانُوا اغتنموه وانتظام أموركم كلّها على الخَيْر والصلاح ، وتمكّن أسباب الأمن والدّعة ، والحمد لله على ما مَنَح من صُنعه الكَريم ، وفَضْله العَميم ، فجدّدُوا شكْرَ الله تعالى على آلائِهِ ، وتوكّلُوا عليه واستَمرّوا بالشُكر المزيد من فضله ، والمعتاد من رحمتِهِ ، وهُو الكفيل تعالى بإنجاد أوْليائه ، وإعزاز حِزْبه وجنْدِه ، والذي ذكرتُمُوه من اختلال أحوال المحسّمين الشرقيين وتبدّد شمْلهم ، فتلكم عادة الله تعالى فيمَن ناوَى أمرَه وأعْرَض عن جَانبه ، والله يُنجزُ فيهم وعْده ، لا ربَّ غيرهُ ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله . كتب في التاسع من ذي الحجة سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

ولما انصرف الأميرُ الأجل الأعدل من فتح جبال غُمارة غالباً منصوراً الى حضرة مراكش حرسها الله قال أبو عمر بن حربون قصيدةً حسنة يمدحه ويهنئه على استلائه على أعدائه وقتْله لهم وهيَ عَدِهِ . (كامل)

[185] بَلَجَت[2] بِكُم حُجَجُ ، الكِتاب المنزلِ
وَنَصرتُم نَصْرَ النبي المُرْسَلِ
وحللتم غمراتِ كلِّ دُجُنّةٍ
لو أنّ صُبْحاً رامها لم ينجلِ
وحسِبتم هُوجَ الرّياحِ جنائبا
وسَرَيْتُم إذ نام لَيْلُ الهواجلِ
وسَخَنتم - واللهُ يشكُر سعيَكم -
في عرْصةِ الأعداء ذيل الجحفلِ

(1) كان المهدي يسمي أصحابه بالموحدين ويسمي خصومه المرابطين بالمجسّمة لأنهم لمّا أخذوا بالعدول عن التأويل للمتشابه من القرآن والحديث فقد صاروا - في نظره - مجسمة وهذا كان يغالط في ذلك ويصرح بأن جهاد المرابطين أوجب من جهاد الكفار وتلك مغالطة من المهدي لم تلبث أن تكشفت للناس.

الاستقصا ثان ص 103 راجع صفحة 216.

(2) رواها ابنُ عذاري بلغت أو بلغتْ البيان المغرب 57.

حيثُ يغصُّ بـه منـاديحُ الفَلَى   فيحارُ منهـا مَخهـلٌ في مَجهـل
طـابَتْ لكُم ريحُ الجـلادِ كـأنمـا   يتعـرفُـون هُـناك عَـرْف المَنْـدَل
مـا زِلتُم تُقـرُون يَـومَ نـزالِهـا   بـالصُّبْـر أضيـافَ الخُطُوب النُّـزَّل
حتّى تحلَّتْ في منصَّـةِ سَعْـدِكُم   عـذْراء تـرفُـل في رِداء القَسْطَل[1]
شنْعاء إن سَمِع العـدوُّ بـذِكْـرِهـا   دَبَّ الضـراءُ لَهـا دَبيبَ الأفـرل[2]
حتّى الـذي هـو خلفَ بَحْـرٍ زاجرٍ   متصـكٌّ مسمَعـه بِهـذا الأرمَـل
لـو تَستمـلـون النُّجُـومَ على العِدَى   جَيْشـاً لَمَا دُعِي السِّمَـاكُ بـأعْـزَل
أورَدْتُمـوهـم لـلمهـنَّـدِ لُجَّـةً   جَمعَت جَـوَاهِرَهَـا سنانُ الصَّيْقَـل
لمَّا أتَى الجبلَ المقدَّسَ منكُم   حرُبْتُ لسَطوتِهِ رَوَاسي الأجبُل
مِنْ كُـلِّ مُبيَضِّ القَـذَال كـأنَّمـا   رَكِبُـوا بِـهِ مَتْنَ الحِصَـانِ الأرحَـلَ
نـظْمُ النجوم قـلادةٌ في نَحْـرِه   واجتـاتَ إيـراد الغَمَـام المُسْبَـل
فـرَقَيْتُمُ مِنْهَـا مَـراقي لم تَكَـد   تَـرْقَى بِهَـا قـدم الصَّبَـا والشَّمْـال
ووطئتُم جَبَـلَ الكـواكب وطْـأةً   هُـدَّتْ لصَعْقَتهـا منـاكبُ يَذْبُـل[3]
والتـاجُ نـورُ الله يُشْـرِق فـوقَـه   مِن عـزَّةِ المُلْكِ الأجَـلِّ الأفضَـل
[186] فتَـبـرَّأتْ تِـلك الـمَـعـاقِـلُ مِـنْـهُـمُ   والـعَـقْـلُ لَـوْ رُزِقـوه ـ أمـنَـعُ مَـعْـقِـل
مـا غـرَّهُـم بخَليفـةِ الله الَّـذي   مَـا لامْـرِىءٍ عَنْ أمْـره من مَعْـدل
ضَـرَبَ الشقـاءُ وجوهَهُـم بضَلالـةٍ   تـاهَتْ بهم في حَـوز لَيْـلٍ أليَـل
واستعجَلُوا أمْـر الالاءِ فجـاءَهُـم   والـوَيْلُ كـلُّ الـويـل للمستعجِـل
عَجَبـاً لَهَـا من فتنـةٍ قَـدْ سـوَّلت   لمُطوِّقـاتِ الأيْـكِ صيدَ الأجْـدَل
سَطِـنَتْ بهم كفُّ الرَّدَى لَمَّـا أبَـوا   ان يقبَلُوا عفْـوَ الصَّفُـوح المُفضِـل
وغـدَا عـويُّهم بـرأسٍ مُنبـعـةٍ   يَهْـوي الى دَرْكِ الجَحيم الأسفَـل

(1) القسطل في الأصل الغبار، ويكنى بها عن الحرب. قال الشنفري:
لئن تستتس بـالشنفـري ام قسطل   لما اعتبطت بـالشنفري قبل اطول
(2) الأفرل: نوع من الحرج.
(3) يذبل: جبل في بلاد نجد.

يُمسي ويصْبِـحُ في ذُؤابَـةِ منْبَـرٍ   يَبعطُ العُـطاةَ ومَـالـهُ من مِقْـوَل
جَاءُوا بـهِ بَابَ الرواق[1] يقادُ في   بُـرْدِ الهَـوَان مقـادةَ المُسْتَـرْذَل
لله كـفُّ طـوحـتْـهِ بـضـرْبَـةٍ   رفعتْـه عَـنْ سِمَـةِ الأخَسّ الأنْـذَل
يـا ذُلَّ شَقْي الأشقِيـاء وخسـرَهُم   إذ خُلِّسُوا عن وِرْدِ هَـذا المَنْهَـل
سُـورُ أضـاء بـمغـربٍ وبمشْـرِقِ   لـم تَعْمَ عَنْـه غيـرُ عَيْن مضـلل
الأمْـرُ أمْـرُ الله قـد حـفَّتْ بِـهِ   في اللَّوح أقـلامُ القَضَـاء الفَيْصَـل
صَـدَعَ الهُدَى فيـه بنصٍّ واضِـحٍ   يُخْبِـي مَنَـاهُ لـواحظَ المتـأوِّل
رَضِيَ الإلاهُ عن الإمامِ المصطفَى   وسقْتـه أخلاف[2] السَّحَـاب الهُطَّل
ألقَى لسيِّدِنَـا الخليفـة عِنْبَهَـا[3]   فَزِعِ الشجاعِ الى الحُسَـام المفصل
وقَضَى لنَجْلِهُم الكـريم بحِفْـظِهَـا   حتى إلى اليَـوْم العَمَّـاس الأهْـوَل
فـالآن قـد هَدَأت وقرَّ قـرارُهـا   عِنْـدَ التَّقي الـزَّاهِـدِ المُتَبَتِّـلِ
لم تُصبِه الدُّنْيـا بِبهجتِهَـا وقَـدْ   جعلَتْ تُغَـازِلُـهُ بعيـني مُغْـزِلِ
[187] فـرُتْ بِـه عَـيْـنُ الـخِـلافَـةِ إذْ رأت   قِـسْـطـاً سَـهَـا بِـيَـدِ الإمَـام الأعْـدَل
إن الخليفـةَ إن تـأخّـر عَصْـرُهُ   فقَـد احْتوَى خلق الـزَّمَـان الأول
شَـرْخُ الشَّبـاب ودَوْلَـةٌ قَـدْ أقبلتْ   يـا حسنَـه من مُقبـلٍ في مُقْبـل
مُلْك تسـحُّ على الـوَرَى بَـركَـاتُـه   فتعمُّ سـائلَهـا ومَنْ لمْ يَسْـألِ
أنَّى تُسـاجِله البُحُـور ، وإنَّهَـا   في بَيْضٍ حـذْوَاه كمِثْلِ الجَدْوَلِ
هنَّت مـولانـا أبـا يَعقُـوب مَـا   خـولت من فتْـح أغـرَّ محجّـل
قلَّدت جِيـدَ المُلْك منـه تَميمـةً   مـا إن يبيت لَهـا بلَيْلٍ الأوجـل
قَدْ جاءتِ الدُّنيا إلَيْك بـوفْرِهـا[4]   واستقبَلَتْـكَ بـوَجْهِهَـا المتهلِّلِ
والحضْـرة العَلْيَاء يَـرْقُبُ طرفُهَـا   منكم سَنَى البَـدْر المُنير الأكْمَـل

(1) ويقصد دون شك باب القبة التي نصبها «الأميرُ الأعدل» في جبال عمارة.
(2) انواه، ابن عذاري ص 58
(3) عهده، المصدر السابق
(4) لم نتبين بالضبط هذه الكلمة، ولعلها «نوفرها»، أن «بوفدها»



خَصِــرِ اللِّسَــانُ وتَــاه في أوْصافِكُم   فــإليكُمــوهــا عِــذْرة المتَحَمِّــلِ

وكان الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين قد توجه بالأمر العزيز أدامه الله ومعه عسكر مبارك من الموحدين أعزهم الله إلى جهة المرتدين من صنهاجة بجهة القلعة على ما تقدم الذِّكر به في الرسالة الكريمة المكتوبة في هذا التاريخ(1).

وكان الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص بمن معه من العسكر من الموحدين أعزهم الله قد تقدم بجهةٍ أخرى من بلاد صنهاجة المذكورين ورسم لهم من العمل ما وُودعوا عليه فنهضوا واجتمعوا وجدُّوا له في غزوهم وسعدوا ، فلما فتح الله جبال غُمارة ، واستُوصلوا سبياً وقتلاً ، وقتل شقيهم الغوي [188] على ما شرح في الرسالة الكريمة ، واتصل خبر ذلك الفتح العظيم بصنهاجة ومن جاورهم من أهل الجبال سُقِط ما في أيديهم ورعبوا بجميعهم ، وتطارحوا على الموحدين أعزهم الله في قبول التوبة ، وتضرعوا في الحَوْبة ، فقبل الشيخ الأجل أبو حفص رغبتهم ، واستقال حوبتهم ، وأعلم الأمر العزيز بذلك ، فصفح عنهم ، فحين انصرف الأمير الرضي الأعدلي إلى مراكش من غمارة انصرف الشيخ الأجل أبو حفص والشيخ أبو سعيد بمن كان معهم من العساكر المؤيدة ، واعلموا بما اتفق من الطوع والمتاب ، وبما كان من الظفر والبشر وحسن المناب ، وعرفوا بطوع المنتري(2) بحصن أسمار(3) ونزوله عنه ، وتمكين الموحدين اعزهم الله عنه .

---

(1) راجع صفحة 162 من المن بالإمامة

(2) كتبت كلمة المنتري في المخطوط على شكل أوهم الأستاذ ويسي فقرأه المنتي (Al Munti) وقد ملت إلى قراءته أول الأمر هكذا : «المفتري» على أنه منحدر من أسرة حاميم بن من الله الذي ادعى النبوة في جبال غمارة سنة 313، لكن بعد أن وقفت في (أكسفورد) على نفس المخطوط تأكدت من أنه «المنتري» أي الوائب المتسلق إلى الحصن المذكور.
الاستبصار ص 191 - الاستقصا أول ص 192 Huici page 251

(3) لم نعثر على تحقيق موقع هذا الحصن بالضبط (Asmar) ولم نجد له ذكراً بين الحصون المتصلة بجبال الكواكب التي ذكرها الادريسي من أمثال حصن مسطاسة، حصن أسلان ... ويظهر أن هذا الحصن هو الذي يعنيه ابن حربون في شعره
ولقـلّ مـا أعـطى مقـادتـه الـذي   أمـسى سمـير الـفرقـديـن بسمْـرا *

فقال أبو عمر بن حربون(1) قصيدة حسنة يمدح بها الأمير الأجل الأعدل ويهنئه وهي هذه : (كامل)

وجَــدَ النَّسِيمُ ثَنــاءَكمْ فتعــطَّرَا   ورأى الوشيحُ مضاءَكم فتأطَّرا(2)
وتبسَّمتْ أيامُكُم عَنْ انعُمٍ   سِيمَ الغَمام بذكْرها فاسْتَعْبَرا
وجَرَى لَهَا مُلك السَّعادةِ بالَّتي   خَتَمت على كِسْرَى(3) وفلَّتْ قَيْصرا(4)
سلطانُ وضاحُ الجَبين متوَّجٌ   بتقى نقيَّ الجيْب أشْعَثَ أغْبَرا
[189] والدِّينُ والدُّنيا معاً قد ردِّيَا   بردائِه الفاروقَ والإسكَنْدرا
جَمعَ الإلاه بِهِ الوَرَى في وَاحِدٍ   فتبارك الرَّحمنُ ماذا قَدَّرا
وأتى بِهِ الزَّمَنُ الأخِيرُ مُقَدَّماً   فكأنَّما الفَلَكُ المُدارُ تَقَهْقَرَا
ملكٌ تضَعْضَعَتِ الهِضَابُ لبَأسِه   وغَدَا لهُ الزَّمَن العَنُود مسخَّراً
فالطُّودُ لَيْسَ ثَبَاتُه عن جِبْلَةٍ   لكن لهيْبته ارْمَّ ووقَرا
لإمامِ عدلٍ بالعبادةِ ناشيءٍ   لم يصْبُ مُذْ عقَدت يَداه المِئْزرا
فالماءُ لو القى طهارةَ ثَوْبِه   في مُزْنَةٍ لغَدَا بها متطهِّراً
يَجْلُو الظَّلامَ بنُور غُرَّتِه الَّتي   فضحتْ أشِعَّتُها الصَّباحَ الأنْورا
ضلَّتْ مَسَاعي مَعْشرٍ لم يَنصِتُوا   فيهم لدعوته العليةِ مِنْبَرا
لما دَعَاهُ الدِّينُ دعوةَ مُرهَقٍ   لبَّاه منصورَ اللواء مظفَّرا
فاليكَ عن صنهاجةٍ ما قَدْرُها   في مُلك مَن يَغْزُو المسيحَ الأعْورا(5)

---

* وقد يكون أيضاً مقصود ابن عبد الحكم حينما يقول
أما كمثْنهم بسمار وتادلةٍ   وما وراءهُما تلك الأفاعيل .
أنظر ص 189 - 287 ، Huici page 231

(1) ابن عذاري في البيان يكنيه بأبي بكر ويذكر أنه حربون بالواو ... ولا نخفى ما فيه ... أنظر التعليق رقم 1 ص 175 - ابن عذاري ص 59.

(2) يرويه في البيان المغرب هكذا : الوسيج ... فقطرا صفحة 59.

(3) كسرى Cosroes لقب لكل ملك من ملوك الفرس

(4) قيصر Cesar لقب لكل ملك من ملوك الروم

(5) المسيح الأعور هو الدجال الذي سيظهر في آخر الزمان.

عــادُوا بحلْمِ لـو عــداهُم أصْحُوا عظةً لمن سَمِع الحـديث وأبْصَرا
وتسـرّأت منْهُم ذُرى هـصـاتِهِم وأتى الحصيص بمثْلهم مُسْتَغْـدِرا
صُمُّوا عن الدَّاعي إلى أن أسْمِعُوا لـوقُوع ماسِك في عُمارة حرْحرا
فتقـدَّمُـوا مستسْلِمين ولـوْ أبـوْا لـم يَسْتَطِيعُـوا عنكُمُ متـأخـرا
ولقـلَّ مَا أعْـطى مقادتَـه الـذي أمْسَى سمير الفرقـدين بسُـرا[1]
لم يَنْـجُ مِنْ سَطَواتكم إلا امـرُؤٌ قـد جـاءكم من ذنْبِـه مُسْتغفـرا
أوْلى لهُم من بَـأسِ كـلّ غضنفـر أقْصَى مُنـاه أنْ يـزُورَ غضنْفـرا
يهْـوى اللواء من العَجاج مُمَسَّكـاً والسَّابريُّ من النجيـع مُزعْفَـرا
[190]وتَـخَـالُ صَفْـحـة كـل نَـهْـرٍ مرهـفـاً وَنَـودُّ كـلُّ قَـصـيـب دوح أسْمَـرا
قـوْمٌ إذا سمت النُّفُـوس لقِنْيَـةٍ لـم يقتنـوا إلا قَنـا وسَنَـوَّرا
ورَمَـوْا بأنفسِهم مَرامي عـزيـةٍ جَعَلُوا القِسِيَّ لهـا الجيـاد الضُّمَّـرا
يـا مَن تـواضعتِ المُلُوكُ لأمْرِهِ وَكَفَى لَهـا عِـزّاً بِـذاكَ ومَفْخَـرا
بيْضت وجوه[2] الدّين منك بعَزْمَةٍ لبسَ الحُسَـامُ لَهـا الـرِّداء الأحْمَرا
تُلْفِي لَـهَـا أثـراً بكـلّ تَنُـوفَـةٍ وتَـرَى لَهَـا في كُـلِّ أفْقٍ عِثْيَـرَا
أشبهتَ والـدَكَ الرِّضَى في هَـدْيِهِ فقـرنْتَ بـالعَـزْوِ العُـرَاة والقِـرا
لـوْلا المحبَّةُ في الجهـادِ وأجْرِهِ لَكَفَـاكَ سَعْدُكَ أنْ تجهّـز عَسْكَرا
أبْشِـرْ فكـلُّ صباحِ يـومٍ إنَّـمَـا يـأتيـكَ بـالفَتْـحِ المُبينِ مُبَشِّـرا
وأَصبحْ لـذكرِ « البـوسفيـة »[3] إنْهـا منعت مَغَانِي الشعبِ من أن تُـذْكـرا
دنَّخْتَهـا من حُسْنِ حلقـكَ حُـسْـةٌ وسقيتَهـا مِنْ جُودِ كفّكَ كـوثـرا

(1) يظهر أن المقصود حصن أسمار المتقدم الذكر ص 250 ولعله هو نفس المقصود من (اسمار) راجع التعليق رقم 3 ص 250
(2) كذا في الأصل، ولعل الصواب (وجه) حتى يستقيم الوزن
(3) في ابن عذاري واصبح لذكر اليوسفية، لكن ماذا يقصد باليوسفية هل يعني بها مدينة مراكش ويكون النسبة إلى الخليفة نفسه هذا وتوجد الآن بالمغرب قرية تحمل اسم «اليوسفية» لكنها حديثة.

فـإذا سقيطُ الطلِّ رَفَّ بـزَهْـرِهـا لَقَـطتْ بِهـا كفُّ النَّسيم الجـوْهَـرا
لـوْ أنّهـا ممّـا تـقـدَّم عَصْـرُه لَقَلَى الـوليدُ الجعْفـريَّ وجعْفرا[1]
كـانـتْ كـظهْـرِ التُّرس مَرْبـاً صَحْصَحـاً فـنـسجـتَهـا لـلْجِـبِ رَوضـاً أخْضـرَا
ونخيـلُ الخطّيُّ حُسْنَ ثِمَارِهَـا فغـدا يَـراس دَعيهم قـدْ أثمـرا
جـاءت قـريحتُكُم بكُـلِّ عجيبَـةٍ أعْيَـتْ علَى الألْبَابِ أن تَتَصـوَّرا
فـإذا الّـذي أدركتُمُـوه بَـديهَـةً قَـدْ تـاه فيـه الألْمعيُّ مُفكِّـرا
جلَّتْ عُلالكُم أن يُحاطَ بـوصْفِهَا حتَّى تَسـاوى مَنْ أطَـالَ وقصَّـرا !
فـاليكمُـوهـا إن أعيـرت لحـظةً خجلت فـاعْـدقتِ القِنَـاع تَخَفُّـرا
[191] حجَّتْك جاعلةً يمينك رُكْنَها[2] وجنابك الخَضِل المَريع المِشْعَرا[3]

وكـان السيد الأعلى أبـو حفص رضي الله عنه قد تحرّك من حضرة مراكش الى غزوة المنافقين المرتدين بالجبل سنة ثنتين وستين وخمس مائة المؤرخة ففتح الله له شره وقطعه ، وسهل له وعره أجمعه ، وغزا المنافقين المرتدّين وانصرف منصوراً ، سالماً موفوراً .

(1) يعني بالجعفري قصر المتوكل العباسي قرب مدينة سر من رأى، وما تزال الى الآن بعض من أطلاله على ما رأيت، كما انه يعني بجعفر صاحب القصر المذكور الملقب بالمتوكل، أما الوليد فلم أهتد للقصد منه، وربما كان يعني به الصفة لا العلمية أي الطفل الوليد، والشاعر يهدف دون شك إلى القول بأن «اليوسفية» التي دبّجت من حسن خلق الخليفة وسقيت من كوثر كفه كانت تخجل مباني الأولين من ملوك بني العباس، ولذلك فإن الفرق بينها وبين تلك المباني واضحة للأطفال بله الرجال الذين يميّزون فلوْ رأى الوليد اليوسفية لأبغض قصور جعفر العباسي إقرأ صفحة 209.
(2) تلميح الركن اليماني أحد أركان الكعبة، ويذكر أن رجلاً من اليمن كان هو الذي بناه، وانشدوا لبعض أهل اليمن:
لنـا الـركن من بَيْتِ الحـرام وراثـة بـقـيـة مـا أبـقـى أبيُّ بنُ سـالم
(3) يعني المشعر الحرام وهو جبل بآخر المزدلفة واسمه قزح.

فقال أبو عمر أحمد بن حربون الشّلبي المذكور يهنئه على ذلك ويمدحه : (وافر)

بسعدكُم دَنَا الأمل القَصيُّ   ولولاكُم لَمَا دان العَصِيُّ
هُوَ الفتحُ الّذي حَلَّى الدَّياجي   وطَار بذكْرِهِ الخَبر الحَلِيُّ
ملأت الخافقَين(1) بهِ سُرُوراً   وأنتَ بمثله أبداً مَليُّ
فقدْ وَرِيتْ زِنَادُ الدِّين مِنْكُمْ   بماضي الغَرْب(2) لَيْسَ لَهُ كَهيٌّ
وقَرَّ خليفةُ الرَّحمنِ عيْناً   بما سنَّاه سعْيكم الزَّكيُّ
نضى مِنْكُم لِنَصْر الدِّينِ سَيفاً   يعَدِّيه الحُسامُ المَشْرِفيُّ
اتيتَ بها مشهرة تَهادَى   كما سرعت منصّتها الهَدِيُّ
[192] فقَدٌّ من العجَاج لهَا قَميصٌ   وصيغ من الحَديد لَها حُلِيٌّ
ولم يَبْعُدْ عليك مدى مُنِيفٌ   يُحلّق دُونَ حَنوته الحنيُّ
قليلُ مَنَابت السَّعَفَات أصْغَى   الى الجوْزاء فهْو لها نَجِيُّ
سَمَوت الى ذُوَابته بعَزْمِ   بمِثْل عرَاره يمري الفَرِيُّ
ولم تَشْغَل بذاك الهَوْل بالاً   كأنَّ رماح عاصِيكم عصيٌّ !
ثبُتَّ وقد تخاذل كلُّ شهْم   فما عرف الجبَانُ ولا الكَمِيُّ
فما سَمِعُوا بأربَط مِنْكَ جأشاً   وقد فنيت من الحَلَق الفنيُّ
تَنَادَوا يوم مُعْضلةٍ نادِ   فلتُ منك طبٌّ أحْوَذِيٌّ(3)
والقتَ بركها او حَاولته   فجَلاّهَا الهُمام الهِبْرِزيُّ
رمُوا بشَرَ نبْثِ الكفَّينْ أدْنَى   مخالبه السِّنَانُ الصلّبيُّ
إذا لَمح الفريسة لَمْ يُهَجْهِجْ   بِه عَنْ أخذِهَا إلاَّ شَقِيُّ
أسيّدنا أبا حَفْصٍ هناكُم   ويَهْنَى الدِّين فتحكُم الهَنِيُّ

(1) الخافقان : المشرق والمغرب
(2) غرب كل شيء : حده يعني حد السيف
(3) سقطت بعض الحروف للناسخ ولذلك نلاحظ اختلال الوزن ولعل الأصل
تنادوا يوم مُعْضلة ناد ...

ولا زَالتْ صَوَارمُك المَوَاصي   وفيها مِن دمَاء عِداك رِيُّ
إذا الهيْجا بِبأسِكُم ادلهمّت   انارَ بنُور بِشْركُم النّديُّ
تَغَايرُ فيكُم هَدِي اللَّيالي   فيحسُد فيكم الصبح العَشِيُّ
إذا ما رامَ وصفَكُم بَليغٌ   اجرُّ لسانَه حَصَرٌ وعِيُّ
وكَيْفَ يَطولُ بَاعُ الوَصْفِ فِيمَا   يقصِّر عَنْ مَدَاه الأعوجيُّ
عَلَى ذَاكُم قدُونَكُم مَديحاً   يَرفُّ بِروضِه الزَّهْر الحييُّ

[193] وكتب أبو عُمَر المذكور الى السيد الأعلى أبي حفص يَسْتأذنه في المشي الى بنيه بشِلب ، وكان ملترماً عنده يكتب له مع الكتاب . (البسيط)

يا خَيْرَ مَنْ عبد الرحمنَ ، عبدُكُم   يشْكو اليكم فراق الأهْلِ والولد
فإن أذنتُم لَهُ في أن يُطالعهم   فهدِه دَارُهم منه عَلَى صَدَدِ
ولَيْس ذلك ببدع من مكارمِهِم   فكَم يَدٍ قَدْ شفعتُم عِنْدَها بِيَد
يا بنَ الخَليفةِ قدْ البستني نِعماً   أذْكَتْ بقلب عدُوِّي جَمْرة الحَسَدَ
فإن آبْ والرِّضَا مِنكم يُصَاحِبُني   فلستُ أرْهَبُ خطْباً آخرَ الأبَدِ

وكتَب إليه أيضاً مع نثْرٍ من الكلام : (بسيط)

هنّي نَبَتْ بي أوْطانِي لبُعْدكُم   أمي جِرَاركُم يتبُّوبي الوَطَن ؟
ولَيْسَتْ لي حرمة دنْيَا أمتُّ بهَا   إلاَّ الذي أوجبْتَه منكُم المنَنُ

وفي هذه الغَزْوةِ السَّعِيدة غزوة الجبَل، أمَر السيد الأعلى أبو حفْصٍ رضي الله عنه أبا عمر بن حربون أن يَصْنع قصيدة شعر على لسانه يتشوق فيها إلى أخيه الأمير الأجل الأعدل أبي يعقوب رضي الله عنهم وذلك في سنة ثنتين وستين وخمس مائة [194] فقال أبو عمر المذكور . (وافر)

سلامٌ أيها المَلِك الهُمَامُ   على نَاديك دام له السَّلامُ
ولا زالتْ لك الأيامُ سِلْماً   وصبَّ عَلى أعادِيك السَّلامُ
فأنتَ إمام هَذا الخَلْقِ طُرّاً   متَى ما زال لا زال الإمَام

بكُم تتكشَّفُ الغَمَّاءُ عنْهُم　　وَيَنْقَعُ علة الأرض الغَمَام
فلولاكُم لكانَ الدَّهرُ الْوَى　　جموحاً لا يُنَهْنِهُه لجَامَ
ولَوْلا دولةٌ أيّدْتُمُوها　　لما عُرِفَ الحَلاَل وَلاَ الحَرام
ولا هَطلَتْ علَى الأرض الغَوادِي　　ولا سَجعت على الدوح الحَمَام
سهرت اللَّيلَ في طَلَبِ المَعَالي　　ونَام بِيُمْنِ دَعْوتِك الأنَام
يعُودُ بذكْرك الرعديدُ شَهْماً　　ويمضي باسْمِك السَّيف الكَهَام
ويكسِبُ حمدُك الأفواه طيباً　　فتحسده الأراكة والبَشَام
أرى حجج الأعادي داحِضات　　وقد أدلَى بحجّتك الحُسام
ادلتُم كلُّ جبّار عَنيدٍ　　فقد ذهَب التحمّطُ والعُرَام
ولِيَ الله أنجحتِ المَساعي　　بِسَعْدِكم وقوطستِ السِّهامَ
وحكُمتِ الأمُورُ عَلَى رِضَاكُم　　وتَمَّ لكم على الزَّمَنِ احْتِكَام
ومِيمَ الخَسْفُ كلُّ أخي عِنادٍ　　ودان لأمركم حَامٌ وسَامُ[1]
فقد بَسمتْ ثغُورٌ عن ثُغُورٍ　　وحُقَّ لَهَا بِدَعْوتِك ابْتِسَام
حلوناها وُجُوهاً نيِّرَاتٍ　　وقد غطَّى سَنَى الشَّمْسِ القَتَام
وخاصمْنا بألسنةِ العَوالي　　فكانَ الفَلْجُ وانْقَطَعَ الخصَامُ
[195] فنحْنُ لِمَنْ يُواليكم شهادٌ　　ونَحْن لمَنْ يُعاديكم سِمَام
سَل الحَمَل المكرّم[2] حيثُ صَاحتْ　　عبابَ البَحْر أعمُك الجسَامُ
تلقّتنا بأشواقٍ اليكُم　　مشاهِدُه المُقدَّسَةُ العِظَام
تطلع نحوكم حبّاً وودّاً　　كَما يَتَطلّعُ البَلدُ[3] الحَرَام
حبيناها بيُمنِكُم كِراماً　　على صَهواتِها عربٌ كِرَام
إذا انْتَاشُوا رماحَهم تدلّى　　أحمُّ النَّقْع وانحطُّ الجِمَام

(1) حام وسام ابنان من بني نوح عليه السلام. ويُعتبر حام أباً للسُّود كما يعتبر سام أباً للبيض،
فالمقصدُ إذن أن البيض والسود جميعاً دانوا لحُكمه!
ابن خلدون: العبر، سادس ص 185
(2) يعني بالحمل المكرم: حمل الكواكب المتقدم الذكر
(3) يعني بالبلد الحرام: مكة، والبلد يذكر ويؤنث كما لا يخفى.

أباة الضَّيْم إن أمرُوا بأمْرٍ　　فكلُّ عَزيزٍ كفر مُسْتضام
إذا قادتْهُم أبنَاءُ قَيسٍ　　فلا لخْمٌ تُعَدُّ ولا جُذَامُ[1]
لَهاميمُ العطَايَا لَمْ يزالُوا　　يُلَفُّ عليهم الخَيْشُ اللُّهام
الا لله منهُم كلُّ دِمْرٍ　　يقبِّل سيفه الموتُ الزُّؤامُ
يَهشُ الى لقاء القِرْن حتى　　كأنَّ الطَّعْنَ بينهُما دِمَامُ
يضمُّ الى العشيرة كلُّ خَيْرٍ　　كَما نحّى عشيرتَه صمام
فَقَلْنَا شُبْقين الى سَنَاكُم　　تَمارى في السموم بنا السَّمام
إذا الصنّير[2] عمَّم كلُّ هَضْبٍ　　ومال بأنفه منه رَغَامُ
حثثْناها بحُوبُ بنا المَوامي　　لِكَي يُشفَى بقُربكم الأوَامُ
ولم نذكُرْك في الظلْمَاء إلاّ　　تَكشَّفَ عنْدَ ذكرِكُم الظَّلامُ
يَطُولُ بنا الزَّمانُ فكلُّ يومٍ　　يمُرُّ ولا نَراكم فهْوَ عام !
تبسَّمُ عنكُم هَدي اللَّيالي　　كما ابتسمتْ عَنِ الزَّهْرِ الكمَامُ

[196] حدَّثني من حضر في مجلس الأمير الإمام أبي يعقوب رضي الله عنه قال: لما أنشدت هذه القصيدة الفريدة المُنْبية عن صفاء الضمائر، وخلوص الإخاء في السراير، من السيد الأعلى أبي حفص الى الحضرة العلية رأينا وجه الأمير قد انشرح مُحَيّاه، وانصح عليها، وتهلّل سروراً وبشراً، وتخيّلْنا وجهه من نوره بدْراً، فقام كلّ من كان في مجلسه العالي من الموحّدين أعزهم الله من طلبة الحضر، وقبّلُوا يده وبايعوه، وأجزل العطاء لقائلها، واشتملت عليه البركات من شمايلها، وانصرف السيد الأعلى ظافراً سالماً ناصراً.

(1) لخم: حي من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية وهم آل عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، وجذام كذلك قبيلة من اليمن تنزل بجبال حسمى.
عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة أول 1949 ص 174 جزء ثالث ص 1011
(2) لم نتبين من قراءة هذه الكلمة، فلعلها الصنبر، نوع من الشجر؟

سنة ثلاث وستين وخمس مائة

خبر تجديد البيعة فيها والاسمية بأمير المؤمنين[1] لسيدنا الإمام أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم [197] قال المؤلف : في أول هذه السنة جمع الله القلوب بخُلوص الضمائر ، المؤذنة بالسعود والفتوح البشائر ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة ، بتجديد البيعة والتسريح بالإسمية المستحقة لسيِّدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين - أعزهم الله - واستعدادهم لذلك ، فنفذ الأمر أدامه الله بكتاب كريم الى السيد الأسنى أبي إبراهيم إسماعيل بن الخليفة رضي الله عنه بمدينة إشبيلية معلماً فيه من البشر اليُسْر ما أوْفى على التَّكميل والتَّتميم بما اتفق من اجتماع الرأي السعيد والفعل السديد ، الذي اجتمعت عليه آراء الموحدين أعزهم الله وكانوا في ذلك من الله تعالى على يقين ، وحق مبين ، من تجديد ما ذكرنَهُ من البيعة

(1) كان التلقيب بأمير المؤمنين في صدر الإسلام خاصاً بالخليفة في المشرق من عمر بن الخطاب الى بني أمية إلى بني العباس من بعدهم، فلما قام عُبَيْد الله المهدي أول ملوك العبيديين بأفريقية تسمى بأمير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحقُّ بالخلافة من بني العباس المعاصرين له في المشرق، وتبع صاحبُ الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي عبيد الله المهدي ورأى أنه - وسلفه كان بالمشرق - أحق بالخلافة، ومعلومٌ أن كلاّ من العبيدي والأموي - قرشي من عبد مناف على ما في فاطمية الأولين وعلويتهم من الكلام، وبعد هذا لم يجرؤ أحدٌ على أن يستحوذ على هذا اللقب سواء ملوك العجم بالمشرق، أو ملوك البربر بالمغرب اعتباراً للحديث «الخلافة في قريش» فلما ظهر يوسف بن تاشفين وعظم سلطانه واتسعت مملكته بعث بوفد لبغداد لدى الخليفة وسمّى نفسه بأمير المسلمين، ولكنه - رعياً للخليفة - لم يتسوّر على التلقيب بأمير المؤمنين، فلما ظهر الموحدون رأوْا من حقهم أن ينالوا هذا اللقب اتباعاً لما فعله الصحابة وكما تقول الرسالة الرسمية، أو لما يستحقه اعتباراً لفتوحاته، ومبانيه ورغد العيش على أيامه، وهكذا كان أول من فعل ذلك منهم عبد المؤمن منذ سنة 528 وتبعه على ذلك ابنه أبو يعقوب سنة 563 كما يقول ابن صاحب الصلاة وكما يقول ابن خلدون :

Ambrosio Huici Un Fragmento inédito de Ibn Idari Hes Tamuda vol II 1961 p 61

العبر - سادس ص 494 - الاستقصا ص 52 - 98 - 99 - انظر التعليق رقم 1 ص 186

الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، المجلد الأول طبعة خامسة ص 438 - 439 راجع صفحة 202 - 209 من المن بالإمامة

الرضْوانية ، والإسمية الإمامية ، للإمام أبي يعقوب سيدنا خلّد[1] الله ولعقه السّعْد والتمكين ، ويأمر في الكتاب الكريم أن يأخذ النَّاس بإشبيلية وجميع الموحدين من الذين بها وببلاد الأندلس التي تحت طاعة التوحيد أدامه الله كقرطبة وأغرناطة ومالقة وغرب الأندلس لعقْد البيعة الرضوانية التي بها يكمل دينْهم ويصْدُق يقينهم ، وبتجديدها على أوْفى الشُروط من عُقُودها ، فوجّه السيد أبو إبراهيم إسماعيل نسخة الكتاب الواصل اليه من الحضرة الإمامية الى الشيخ الحافظ المرحوم [198] أبي عبْد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بأغرناطة فجمع الحافظ أبو عبد الله الناس بها على الاستيفاء والاحتفال ، والوفور والكمال ، وقُرِي عليهم الكتاب الكريم بمحضرة فوق المنابر ، واتصل خبره عند الغائب والحاضر ، فبادروا الى البيعة الرضوانية وقبولها والتَّشريح بالإسمية الإمامية ،وتنسموا ريحَ السَّعادة من قبولها ، وصادف هذا النبأ السارُّ من جوانح الموحدين وجميع جوارح الصّنْف الأندلسي أفئدةً تهوي اليه قبلاً ، وتوجد الى رضا الرحمن في التزامها صدقاً مخلصاً لهم وعملاً ، لمثابتها الواضحة ، وتجارتها الرابحة ، ولمّا يُرْجى عند الله تعالى من الجزاء على الأعمال الصالحة . وكتب أهل إشبيلية بيعتهم وفيها إشْهادهم على أنفسهم بخُطُوط أيْديهم وأسمائهم بما هذا نصُّه ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إسماعيل صحبة كتابه الى الحضرة العلية مع بعض أشياخ إشبيلية ، ونسخة البيعة هذه من إنشاء أحمد بن[2] محمد :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم ، الحمد لله الذي جعل الإمامة قواماً للحق ، ونظاماً للخلق ، وتماماً على الذي أحسن

(1) هنا فضاء ولعل كلمة (له) أنسب به

(2) لم يذكر ابن صاحب الصلاة نعتاً ولا نسباً ولا لقباً لأحمد هذا، ولم يرد اسمه أكثر من هذه المرة، وأظن أنه يعني به أبا العباس احمد بن محمد بن احمد بن مقدام الرعيني الاشبلي ممن كان صاحب أبا بكر ابن العربي في وُرُوده على مراكش لبيعة عبد المؤمن سنة 542، فقد ظل بعد عودته على صلة بالسادة الموحدين وقد توفي أواخر سنة أربع وست مائة. ابن القاضي جذوة الاقتباس ص 72

برعاية العدل والرفق ، وأوْجَبَ الاعتصام بطاعتها ، والانتظام بجماعَتِها والصَّلاةُ على محمد نبيِّه المبعث بنور الحق الساطع الأضواء ، المبلغ [199] عن الله سبحانه بأكمل وجوه التَّبليغ والإنْهاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنُّصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المَعْصُوم ، المهديّ المعْلوم ، المخصوص بأثرة الاصطفاء والاجْتباء ، والدعاء لسيِّدنا ومَوْلانا أمير المؤمنين الخَليفة المرتضى ، متمم أنوار الهُدَى ، ومجلّي غياهب الظلماء ، وللإمام الأعدل الأهْدى سيِّدنا ومَوْلانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدَوام النُّصر والاستيلاء ، واستصحاب الظُّهُور والاعتِلاء ، أمّا بعد فإنّه لما اجْتَمَعَت طائفةُ التَّوحيد ، وهُمْ الذين تحضُرهم من الله حاضرةُ التّوفيق وينظر إليهم نَظر الاقتِداء والاهتِدَاء ، مَنْ وراءهم من أهل الحقّ والتّحْقيق ، على تَجْديد البيعة المُباركة لسيِّدنا ومَوْلانا أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب بن أمير المؤمنين خَلَّد الله أمرهم ، وأعزّ نصرهم بالاسم المبارك الكريم الذي أول من دعا به الفاروق رضوان[1] الله تعالى عليه ، فعرف الله من يمنه ما فتح لِملّة الإسلام شرْقاً وغرباً ، وأحال الدَّلْوَ بيد ساقيهم فاسْتَحالت غرباً ، حتّى ضَرب الدِّين بجرانه ، والقى النَّاسُ بعَطَن[2] بيْن يمنه وأمانه ، فجدَّدنا من بيعته على الإسمية المباركة فرضاً أوجبَه الشَّرعُ وجوبَ الإلـزام ، واقتضَى الوفاء شُرُوطه المؤكَّدة على الكمال والتَّمام ، فبايعْنا عَلَى السَّمْع والطَّاعة بيعَة إيمان وأمانة ، وعَدْل [200] وعبادة ، والتزمْناها في اليُسْر والعسر ، والمنشط والمكره ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا منها بالعُروة الوثقى والعصمة

(1) روى البلاذري أن بلالاً كان يقف بباب رسول الله ويقول السلام عليك يا رسول الله ... فلما ولى أبو بكر كان المؤذن يقف ببابه ويقول: السلام عليك يا خليفة رسول الله ... وفي خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يقول: السلام عليك يا خليفة خليفة رسول الله لكنه منعاً لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكرٍ أمر عُمرُ بن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة: أمير المؤمنين.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام أول ص 438 - 439
(2) العطن: مبرك الابل حول الماء. وهذا إشارة إلى حديث الصحيحين عن ابن عمر وأبي هريرة في الرؤيا النبوية: «حتى روى الناس وضربوا بعطن» مثل يضرب لاتساع الحال وكثرة الفتوح.

التي مَن تعلَّق بحبها وآوى الى ظلها فقد اعتصم بالجانب الأمنع الأوْقى ، علماً أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التي تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها العناية الربانية . عَلَيْنا بذلك عهدُ الله الأوكد الألزم وميثاقه الأغلظ الأعظم ، وذمَّته التي لا يُقطع حبلُها عَلى مُرُور الزَّمان ولا يُصْرم ، مستبصرين في هذه البيعة الكريمة بنور الاهتدَاء ، سالكين في التزام الطَّاعة المحجَّة البيضاء ، عارفين ما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها أكناف الإسلام ، ويجعلها كلمةً باقيةً على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنه . وعلى مُضمَّن ما نص فوق هَذا التزمَ أهلُ إشبيلية كافَّة وكتبوا على ذلك شهادتَهم في النِّصف من جمادى الأخيرة سنة ثلاث وستين وخمس مائة .

وكذلك كتَب أهل أغرناطة بيعتهم أيضاً وفيها إشهادُهم على أنفسهم بخطوط أيديهم وبمحضر الشيخ الأجل الحافظ المرحوم ابي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما هذا نصه : [201] ووجهها الشيخ المرحوم المذكور مع بعض أشياخ أغرناطة الى الحضرة العالية ، وبكتابه الى أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه ونسختها ما يذكر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد وآله وسلم الحمدُ لله الذي جَعَل الإمامة عصمةً للدِّين ، ونعمةً سابقةً منه تَعالى للمُسْلمين ، ورحمةً أراد بها ـ جلَّ جلاله ـ هدي المهْتَدين ، وقوام المُؤمنين ، نظم بها عقْدَ الأنام ، وتمَّمَ بارتباطها عَقْدَ الإسلام ، وأظهر بالتِزامها، بركةَ تمامها وانْتظَامِها والصَّلاة على محمَّدٍ نبيّه ورسوله الذّي ابتعثَه برَحْمتَه ، وأيَّده بقُدسيه وقدْرَته ، وأعانه على إعلاء أمره وكلمته ، وعلى آله وصحابته الذين آمنوا به ونَصَروهُ ، وآزروه وعزروه ، إذ اصطفوا إمامُهم ، وقدَّمُوه وأخْلصوا لله تعالى في طاعته ومناصَحته أفهامهم ، وأعملوا في نصرته وحمايته إقدامَهُم وأقدامهم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي أظهر الحق بعد دُرُوسه ، وأطلع للإيمان ساطع أقماره وشموسه ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين خليفته المرتضى الذي أشْرَقت أنواره ، وظهرت على